حوار الثلاثاء

يرى ان السينما عمل جماعي يحتاج قبل كل شيء إلى استقرار اجتماعي وسياسي

المخرج السينمائي قتيبة الجنابي: ما زلت هاوياً وأتكبد الكثير بسبب عشقي للسينما

مارس التصوير الفوتوغرافي في واحدة من أهم الصحف العراقية سنوات السبعينيات جريدة طريق الشعب، ولم يكن يتجاوز الثامنة عشرة.. وهو ما جعله في ما بعد احد مبدعيها... لكن ذلك لم ينسه عشقه الأول للسينما.. التي ولجها بأفلام قصيرة حظيت باهتمام نقدي مهم ، يرى انها كانت تمريناً قبل خوض تجربته الأولى في الفيلم الروائي الطويل من خلال فيلم (الرحيل من بغداد) الذي عرض لأول مرة في مهرجان دبي السينمائي العام الماضي واستقطب اهتماما نقديا يستحقه. العراق، المنفى، وعشق السينما وتجربة امتدت لأكثر من ثلاثة عقود مع الكاميرا، كانت المحاور التي اعتمدناها في حوارنا مع المخرج العراقي المقيم في لندن قتيبة الجنابي:

أجرى الحوار / علاء المفرجي

× نبدأ من فيلمك (رحيل من بغداد).. المنفى مرة أخرى، إلى أي مدى يلقي المنفى بكل تفاصيله وهمومه بظلاله على منجزك الفني؟

– المنفى كما تعرف هو حالة فرضت على أبناء جيلي خاصة أولئك الذين تمردوا على وسائل الترهيب التي اتبعها النظام الفاشي نهاية سبعينيات القرن المنصرم. وقد مارست هذه الحالة تأثيرها علينا بأشكال مختلفة، بالنسبة لي فإني تأقلمت معها جغرافيا وليس روحيا، ذلك إني ما زلت أتعاطى معها على الرغم من معايشتي لها لأكثر من ثلاثة عقود وكأنها أمر طارئ، ووقتي سرعان ما سينتفي حال انتفاء الظروف التي أدت إليه.. لقد بقيت مشدوداً إلى جذوري، وكل ما صنعت إن في مجال الفوتوغراف أو السينما مرتبط عندي باللاانتماء واللامكان وكل ما مررت به وأبناء جيلي من معاناة وآلام خلال هذه الأعوام الطويلة هو محض اختبار، لكني لا أتردد من القول إن المنفى صار جزءاً من الثقافة العراقية..

ما جعلني أتمكن منه بمعنى أن أبدد شيئاً من معاناته وآلامه هو رصدي له كونه حالة يجب أن أتخطاها. وأنت ترى بوصفك متابعاً لما أنجزت خلال هذه السنوات إنّ كل ما قدمته هو في باب السعي لتوثيق سنوات الهروب المستمر واللاستقرار بصرياً في الفوتوغراف والسينما.

وفيلمي الأخير (الرحيل من بغداد) هو تتويج لهذا المسعى بعد سلسلة من الأعمال عزفت على وتيرة هذه الثيمة.. لقد حاولت في هذا الفيلم وطبقاً لفهمي الخاص للمنفى أن أنقل العراق إلى المنفى وليس العكس، فالعراق كان منفياً أيضاً بشخوصه وأحداثه.

× في فيلمك القصير (حياة ساكنة) كانت هناك العزلة ايضاً بل الموضوع نفسه هاجس الملاحقة والخوف من المجهول ماذا تقول؟

– هذا صحيح ولكني في (حياة ساكنة) حاولت أن أرصد أثر العيش في المنفى وأجسّد الخوف من قدر يترصدنا أنّى حللنا .. وأيضاً حاولت أن أعمل منه مشروعاً بصرياً، وأظنك انتبهت الى هذا الموضوع بمقالتك النقدية عنه .. رجل في مكان (هنا غرفة صغيرة) في إحدى بلدان الشتات يشعر بأنه مرصود من الآخر المتربص له في الشارع او المقهى او في الباص وربما هو ليس إلا وجود شبحي اسكنه الخوف في رأس هذا المنفيّ.. هذا الشعور توضح أكثر في (الرحيل من بغداد) كان أكثر وضوحاً ربما لأنه فيلم روائي طويل ويتيح هامشاً كبيراً لإيضاح التفاصيل.. باختصار انها تجربة حياتية .. تصور إني ما زلت حتى هذه اللحظة اشعر بأني ملاحق ومراقب ربما خفت حدة هذا الإحساس مع سقوط الصنم لكنها مترسبة واضحة في اللاوعي.

× لماذا هذا الإحساس بأنك مستهدف؟

– يا صديقي تعرفني جيداً إنني لا يمكن لأي آيديولوجية ان تأسرني، فأنا أسير منجزي فقد بدأت يسارياً وما زلت على هذا الهوى، وأشعر إنما أحمل من أفكار تصطدم بوجود قوى متسلطة وأفكار من لون آخر فهم جيداً إننا ضحايا ومستهدفين دائماً وعلى طول الخط.. هل لي أن أذكرك بصديقنا الشهيد كامل شياع.. بماذا كان كامل يخيف خصومه سوى بأفكاره التنويرية وحبه لوطنه والأهم إن (كاملا) كان من أولئك الذين سعوا الى ردم الفجوة بين المنفي والوطن.. ولا أدري كم سيتطلب ردم هذه الفجوة من تضحيات.

× لا مفرّ من هذا السؤال التقليدي وإن كان متأخراً بعض الشيء أعني به كيف بدأت علاقتك بالكاميرا؟

– أنا من جيل هيمنت السينما على عالمه، كانت أحد أهم مجالات الترفيه للعائلة .عشقت السينما منذ طفولتي، عالم مارس إغواءه عليّ بالفيلم وقصته وطريقة عرضه او في طقس ارتياد صالات العرض.. سكنتني بالكامل، فكان من الطبيعي ان أسعى لتعلمها ودراستها بشكل اكاديمي.. لم يتسن لي ذلك بسبب الشروط التي فرضتها المؤسسة التعليمية امتثالاً لسياسة الحزب القائد واشتراطها ان يكون القبول في مثل هذه في الكليات محكوما بالولاء لآيديولوجية الحزب والنظام.. تصور إنهم وضعوا شروطا قاسية للقبول للكليات التي تعتمد على الجانب الإبداعي في الفن والرياضة والأدب ربما كانوا يهيئون جيلاً ينتظم في هذه المجالات وولاؤه للسلطة فقط.. هل نجحوا؟!

ولأني اكتشفت ان من يريد ولوج عالم الصور المتحركة عليه أن يبدأ بالفوتوغراف يعني الصورة الثابتة، وكان هذا ما فعلته، ذلك ان ممارسة الفوتوغراف درّبت عيني على انتقاء اللقطة المعبّرة واستبطان حركة هذه اللقطة ورصدها وهو أمر مهم أعانني كثيراً في عملي في السينما.. لم أكن أتجاوز الثامنة عشرة من عمري عندما عملت في جريدة طريق الشعب في سبعينيات القرن الماضي وكانت تجربة عظيمة بالنسبة لي، فقد اكتسبت خبرة مهمة في مجال التصوير وايضاً في تنامي وعيي وثقافتي من خلال العمل مع خلاصة مثقفي العراق الذين كانوا يعملون في هذا المطبوع.. وقد أسهم ذلك كثيراً في صقل موهبتي وأيضاً تكريس عشقي للكاميرا. اضطررت بعدها الى مغادرة العراق تحت وطأة القمع الى بلدان الشتات، فكانت محطتي الأولى هنغاريا التي درست فيها الفوتوغراف بشكل أكاديمي وأقمت عدداً من المعارض ثم بعد ذلك في بيروت وكانت فرصة لي في توثيق نضال المقاومة الفلسطينية.. حيث أقمت معرضاً في بودابست أثار الكثير من الاهتمام عن الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ ، أعقبته بكتاب مصور يلخّص تجربتي في هذا المجال ثم درست السينما بمعهد السينما في بودابست لأمارس العمل السينمائي بعد الاستقرار في لندن.

× بين الفوتوغراف والسينما، أين يجد قتيبة الجنابي متنفسه؟ وهل وجدت ان السينما وسيط أكثر تحررا في ترجمة أفكارك؟

– عملي في السينما هو عودة الى عشقي الأول المجال الذي كان عليّ ولوجه مهما تعددت الاهتمامات او طال الزمن. لكن الفوتوغراف كان المحطة الأهم قبل ولوجي هذا العالم. أنا لم أجن من المجالين حتى هذه اللحظة ما يسد رمقي ما زلت هاوياً وأتكبد الكثير من أجل عشقي . كنت دائماً أسعى للعمل مع مخرجين كبار لم تتح لي الفرصة لذلك وبدأت مع الأفلام القصيرة وخضت تجربة مع التلفزيون من خلال عملي في قناة MBC وكان لعملي في هذه القناة دور مهم في صقل خبرتي.. وبتواضع أقول إني أول من نجح في دخول اللهجة العراقية والأغنية العراقية في هذه القناة.. وعملت أيضاً في الاوبرا هاوس. ومن خلال هذه الأعمال التي كانت بمثابة تمرين لي في أن يكون لي عملي الخاص الذي يحمل اسمي ولطالما كانت أمنيتي أن أخوض تجربة الفيلم الروائي الطويل، فكان فيلم (الرحيل من بغداد) وهو كما تعرف التجربة الأولى لي في مجال الفيلم الطويل.

× ما هو بتصورك العائق الأكبر أمام دوران عجلة الأفلام العراقية أو بمعنى أوضح خلق صناعة سينما، وهل ترى أن ضعف انطلاقة السينما في العراق في البدايات الأولى ارتبط أيضاً بأسباب ما زالت فاعلة حتى الآن؟

– سأبدأ بالشق الثاني من السؤال وأعني به البدايات.. فبدايات السينما في العراق وحضورها في المشهد الإبداعي هي غير حضور الشعر والمسرح والتشكيل. هذا واضح تماماً لمن يقرأ تاريخ التأسيس المعاصر لهذه الأجناس الإبداعية في العراق، لكن رغم ذلك كان يمكن ان يكون حضور الفن السينمائي في العراق أقوى مما كان، لو أخذ القطاع الخاص المدى الذي يستحق في صناعة الفيلم، وربما المتغيرات السياسية والاجتماعية كان لها اثر مهم في تباطؤ استمرار هذه الصناعة انطلاقاً من كونها صناعة قبل ان تكون فناً. فالسينما عمل جماعي ومؤسسي يحتاج قبل كل شيء إلى استقرار اجتماعي وسياسي، وهذا ما افتقدناه في بلدنا الذي اجتاحته ومنذ أكثر من خمسين عاماً الانقلابات والحروب والمشاكل السياسية في سبعينيات القرن الماضي الذي شهد نوعاً ما استقراراً نسبياً كان يمكن للسينما ان تؤكد حضورها وهذا كان حاصلاً من خلال عدد من الأفلام المهمة التي أنتجت في تلك الفترة، لكن مع نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات التي ارتبطت بتكريس النظام الشمولي الدكتاتوري والتورط في حروب مع الجيران أصبحت السينما في خدمة المؤسسة المتسلطة، كانت مجرد بروبغندا وخطاب دعائي لها، فلم يستطع العديد من الذين التحقوا بدراسة السينما في المعاهد والكليات الأوروبية في منتصف السبعينيات ان يستفيدوا مما تعلموه في النهوض بواقع السينما العراقية، فقد اختار معظمهم المنافي بعد الهجمة الدكتاتورية الشرسة على المثقفين الديمقراطيين والتقدميين نهاية سبعينيات القرن المنصرم، أذكر منهم (حكمت داود، محمد توفيق، علي رفيق، علي كامل، بهجت صبري، قاسم عبد، وآخرين)، وكان يمكن لهؤلاء لو توفرت لهم الفرصة أن يقولوا كلمتهم في هذا المجال.

> مازلت بعد ثلاثين عاماً أتعاطى مع المنفى كحالة طارئة

> إنتاج فيلم أو فيلمين ليس ملمحاً لنهضة سينمائية أو انطلاقة حقيقية لها

> في (الرحيل من بغداد) نقلت العراق الى المنفى

× الفورة السينمائية إن صحّت التسمية التي حصلت بعد عام ٢٠٠٣ يرى البعض قصورها من جهة أنها وضعت المشاركة في المهرجانات هدفا لها من دون ان تسعى لتأكيد جماهيرية السينما من خلال إشاعة وعي وذوق سينمائيين ما تعليقك؟

– إنها ليست فورة بل هي حالة طبيعية فكونها بدأت بعد عام ٢٠٠٣ هذا معناه إنها استفادت من واحد من أهم شروط الإبداع واعني به فضاء الحرية المتاح والاهم من ذلك إن الشباب تسيدوا هذا المشهد.. ولكن هذا لا يعني إن إنتاج فيلم أو فيلمين ملمح لنهضة سينمائية او انطلاقة حقيقة لها.. أنا لست ضد المشاركة في المهرجانات وتأكيد الحضور في هذه التظاهرات السينمائية، هنا امر مهم ولكن الاهم منه هو أن نفهم أن للسينما رسالة وهو ما يجب ان ينعكس على آلية اشتغالنا بها، أنا اعتقد ان الفيلم الاول هو ربع فيلم والثاني نصف فيلم، أما الثالث فربما يكون هو الفيلم. لكن ما انجز خلال السنوات الثمانية الأخيرة يشي بلا شك في نهضة محتملة للسينما في العراق.. بالمناسبة أنا أتحفّظ على عبارة سينما عراقية، يمكن ان نقول أفلاماً عراقية، ذلك ان سينما عراقية معناه توفر إمكانات صناعة سينمائية وتقاليد عمل وملامح واضحة فكيف لنا أن نقول سينما عراقية، في وقت لا توجد فيه حتى صالات عرض.

× بماذا يمكن لك ان تلخّص العوامل التي تسهم في انطلاق صناعة السينما في العراق ووصولها الى العالمية كما حصل مع عدد من البلدان التي تماثل ظروف العراق؟

– نحن بحاجة الان وبتقديري هذا شرط مهم الى مؤسسة متخصصة في السينما تتوفر لها كل الإمكانات اللوجستية، إلى التصدي لمهمة النهوض بالواقع السينمائي في العراق.. مؤسسة تنظم عملها بخارطة طريق يسهم فيها كل المتخصصين أشخاصاً ومؤسسات في الشأن السينمائي من شأنها ان تضع الخطوط الأساسية لعملية النهوض هذه.

الموضوع الآخر هو منح التسهيلات اللازمة لدخول القطاع الخاص في عملية الإنتاج السينمائي وهذه التسهيلات تبدأ من تخفيف حدة الضوابط الإدارية وأيضاً الرقابية ولا تنتهي بالتسهيلات الضريبية ومنح القروض لإنتاج الأعمال السينمائية .. عامل آخر لا يقل أهمية إن لم يكن هو الأهم ويتعلق بإعادة النظر في المناهج التعليمية لكليات ومعاهد السينما بما يتماشى وطبيعة التطورات المتلاحقة في صناعة السينما في في العالم وأيضاً توفير المستلزمات الفنية للدارسين. وطبعاً لا يمكن لنا ان نتخطى ضرورة الاهتمام بصالات العرض السينمائية وإعادة تأهيلها لتواكب التقنيات الحديثة في هذا المجال .

× في فيلمك (الرحيل من بغداد)، غرّدت خارج سرب المخرجين العراقيين الآن، أعني من حيث اعتمادك موضوعاً نأى عن توثيق الكوارث السياسية والاجتماعية التي أعقبت عام ٢٠٠٣ وهي الثيمة التي اشتغل عليها هؤلاء المخرجون والتي لا يمكن لنا أن نغفل جانب الاهتمام بها من قبل الآخر ما الذي تراه أنت؟

– في ما يخص الموضوع الذي تحدثت عنه هناك جانب كبير من الصواب فيه، فقد أتاحت لي الفرصة مشاهدة اغلب الاعمال للمخرجين العراقيين خاصة الشباب منهم، فالموضوع المشترك كان التأكيد على قول ما حصل بعد عام ٢٠٠٣ والذي ذهب لدى البعض منهم الى حد التوثيق وأعني هنا هيمنة الوثيقة على هذه الأعمال، وكان هذا على حساب الجانب الفني والجمالي، فقد شاهدت مثلاً أحد الأفلام اعتمد مخرجه بالكامل على لقطات وثائقية بثتها الفضائيات في القنوات الفضائية من دون دخل واضح له –أي المخرج– في تمثل هذه الوثيقة وإعادة إنتاجها جمالياً.. آن الأوان لاختيار زوايا نظر جديدة للحدث العراقي أزعم أن فيلمي الرحيل اعتمد هذا الجانب، فقد تناولت الموضوع أو الحدث من زاوية نظر أخرى وجدت فيها استعراضاً للأسباب التي قادت الى نتائج كارثية.

× قلت لي مرة انك تتمنى ان تصنع فيلماً عراقياً خالصاً داخل العراق.. ما الذي يمكن ان يضيفه ذلك الى تجربتك؟

– يضيف الكثير وأنت لست بعيداً بحكم عملك عن فهم السبب في ذلك.. بالتأكيد الموضوعة عراقية مئة بالمئة وباقي تفاصيل العمل ستكون عراقية.. لا شك في أنها مغامرة كبرى على الأقل، في الوقت الحاضر لكنها مغامرة تستحق أن نخوضها لأننا سنكون إزاء فيلم عراقي بالتقنيات والملامح وهو سيضيف بالتأكيد الكثير لمن يتصدى لهذه المهمة.. جميعنا تابع الأعمال الدرامية التي عرضتها الفضائيات في الفترة الأخيرة والتي تم تصويرها في سوريا وفي أي بلد آخر وجميعنا أيضاً لمس كم كان المكان متوارياً في هذه الأعمال حداً افقد هذا العمل او ذاك هويته العراقية ولم تشفع اللهجة ولا الموضوع أمام غربة المكان.

ما زلت أتمنى.. وأنا في الطريق الى ان أحقق هذه الأمنية في ان يكون فيلمي القادم في العراق.

× هل تحضر الرواية العراقية أمامك وأنت بصدد التخطيط لمشاريع مقبلة؟

– بالتأكيد ودعني أقول لك منذ أن بدأت العمل في هذا المجال وفي رأسي اكثر من عمل روائي عراقي سأقول لك مثلا الرجع البعيد، خمسة أصوات، أرض السواد وغيرها.. لكن هذا يتطلب كاتب سيناريو محترفاً وهو وللاسف ما نفتقده.. العمل الروائي نصاً مفتوح، لذلك يتطلب كلفة إنتاجية هائلة، وبالإمكانات البسيطة التي نعمل بها، ربما سيكون ذلك أمنية لا غير.. لذلك فأنا أجد الحل في سينما المؤلف خاصة وإنني غير مسكون بفكرة سينما ملحمية.. أقرب تجربة لنا هي السينما الواقعية الإيطالية علينا ان نأخذ بها، السينما الإيرانية اقتفت أثر هذه السينما ونجحت، وأي نجاح.. أرى أننا بامسّ الحاجة الآن الى سينما واقعية. ودعني أذكّرك إن هذه السينما ترسخت في الإنتاج السينمائي الايطالي بعد خروج إيطاليا من الحرب وسقوط الفاشية وهو ما يماثل ظروفنا بالتأكيد.

× الفنان التشكيلي الرائد محمود صبري، كان موضوع فيلمك (عكس الضوء) إنه يلقي وبشكل غير تقليدي الضوء على أحد أهم التجارب الإبداعية في التشكيل العراقي .. هل في نيتك الاستمرار في هذا الموضوع بالنسبة لرموز عراقية أخرى؟

– نعم وأنا بصدد تنفيذ فيلم عن أحد الشخصيات السياسية الوطنية العراقية والتي كان لها اثر مهم في الحياة السياسية العراقية لأكثر من نصف قرن، ومازالت فاعلة حتى الآن، وبالفعل فقد أنجزت مرحلة لا بأس بها من هذا الفيلم.. هذا مشروع مهم بالنسبة لي فنحن نحتاج الى توثيق السيرة الحياتية والإبداعية للرموز العراقية تمثلاً لما يحصل في الكثير من البلدان المتطورة. فهم جزء مهم من ذاكرة وتاريخ العراق .. ومن خلال المدى أوجّه دعوة للمؤسسات المعنية لإيلاء هذا الموضوع الاهتمام الذي يستحق واعتماده كمشروع ملحّ لا غنى عنه..

× بعد الرحيل من بغداد ما الذي يفكّر فيه قتيبة الجنابي من مشاريع؟

– اكتملت لديّ الملامح لفلمي القادم والذي أتمنى أن أنجز تصويره في بغداد، وهو فيلم (قطارات ليلية) المأخوذ عن مجموعة قصص للقاص العراقي الكبير محمد خضير، وقد كانت لي عدد من الحوارات مع كاتبنا الكبير حول هذا الموضوع الذي تحمّس له كثيراً.. هذا الفيلم يتناول جوانب مهمة من تاريخ العراق الحديث خاصة في الخمسة عقود الأخيرة، المشروع الآخر الذي اكتمل السيناريو له هو فيلم روائي طويل أحيط موضوعه الآن بالكتمان.

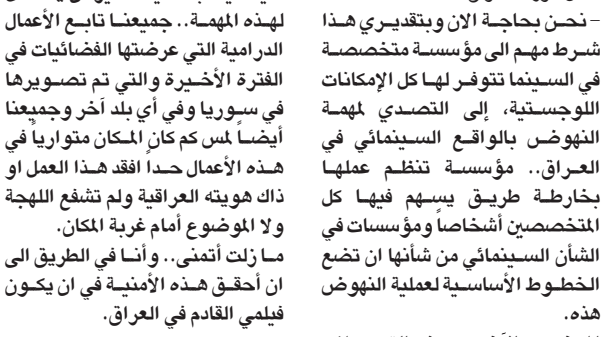

من اعمال الجنابي الفوتوغرافية..

الجنابي مع المحرر

ملصق فيلم (الرحيل من بغداد)

قتيبة الجنابي

الجنابي في سطور

- ولد في بغداد عام ١٩٥٦ .
- عمل مصوراً فوتوغرافياً في جريدة طريق الشعب منتصف السبعينيات.
- غادر العراق إلى هنغاريا نهاية السبعينيات هرباً من بطش النظام الدكتاتوري.
- تخرج في معهد السينما في بودابست.
- أقام معارض للفوتوغراف في بودابست وبيروت ولندن.
- أصدر كتاباً فوتوغرافياً (بعيداً عن بغداد)
- من أفلامه القطار، حياة ساكنة، المراسل البغدادي، أرض الخراب، عكس الضوء، الأرض الحرام.